يطوق الفعالية في جدران ضغط الضرورة الداخلية التي تمثل اشد انواع الاغتراب في اقصى حالات تراكمه ، المؤدي الى التغيير النوعي في الذات الباحثة المستكشفة لروابطها العالم ، تمتد نورانية معرفته لتضيء اعماق الذات المكتشفة ، ولتنتصر على النوازع العالم ، تمتد نورانية معرفته لتضيء اعماق الذات المكتشفة ، ولتنتصر على النوازع اللاانسانية فيها · ولتحطم حدود الغائية المنحلة في ذاتها ، لتتحول الى غائية انسانية لا متناهية ·

في المرحلة المرسنلية ـ السديمية ، تنحل الفعالية في غائيتها الذاتية ، فهو سيصطاد حتى ولو اعاد السمك ثانية الى البحر ، يربط الحوت لا بهدفية مواجهة خطره المدمر ، بل من اجل اثبات الجدارة ولو عرض حياته للخطر ، يعشق المرأة لتكون بالوعة تفريغ ، يحب البحر والشاطيء لان فيهما اتساعا لضغط العنفوانية الجسدية فيه · وباكتشاف الذات من خلال اكتشاف الوجود ، تتسامى هذه الرغبات الحبيسة عن تفجرها الآني على حدود الذات لتتحول الى تفجر انساني يكشف عن لا محدودية العطاء الكامن ·

تبدأ رحلة اكتشافه لذاته منذ ولوجه الغابة ، ففي رحابها السحري ، تستيقظ هواجسه مستحمة في طقس الطبيعة وفيضها الامومي ·

فيتلامس عالمه العاري مع قاموس القيم البشرية ، يعيش وطأة احساس حاد بالذنب لقتله ـ زخريادس ـ ، ويتذكر صديقه ـ عبعوب ـ الذي يفكر عنه ، في حضن الامومة الطبيعة يمارس بوحه الداخلي ، وفي جحيمه الاحساس بالذنب ، ينشط تفكيره ، وعند ذاك يعرف لماذا لا يفكر الحمار الا وهو تحت الحمل ، فالتفكير يستيقظ في أوقات الشدة ·

المحنة دفعت به باتجاه الغابة ، وبمحنته هذه تبدأ عملية امتحان ذاته على مواجهة الظروف الجديدة ضمن اطار الكشف · وعملية استشفاف النوازع الخيرة المغمورة ضمن اطار الاكتشاف ·

فالبحر خالطه ، اتحد به ، لكن الغابة هذه التي تخيفه والذي يمنحه اتساعها مجالا لاستخدام دماغه المعطل · تجربة جديدة اينعت عن سر الكشف والاكتشاف ، ستضاف اليها شكيبة لتتمخض فيه عن انسان آخر · الآخرون بالنسبة له كانوا كذبة ، كانوا « كحمير النواعير ، ينفذون الاوامر وايديهم على رؤوسهم » (١٢) ·

كان منغمسا في حياتهم عبر طاقة الفعل الجسدي المتميز ، « كنت حمارا كما قال عبعوب ، جلفا مع الكل ، وهذا عقابي » (١٣) · ولكنه منذ نفذت رهبة السكينة وقدسيتها المطهرة الى اعماقه ، بدأت الذات ـ المرسنلية ـ الخبيئة تنبثق في اعماقه عبر الانقاض التي خلفها واقع اجتماعي ، قتل فيه كل جوانب النبل المتأصلة فطريا فيه ·

هل يتبنى ـ حنا ـ فلسفة (جان جاك روسو) في قصته الفلسفية « اميل » او « في التعليم » ، الذي اعلن أن الانسان حر في طبيعته ، ودعا الى الرجوع الى الطبيعية لتنشئة البشر تنشئة بعيدة عن القيود الاجتماعية المثبطة ؟·

هل ـ زكريا المرسنلي ـ هو حي بن يقظان السهرودي « الذي تخيل نفسه فيها طائفا بين مغرب الارض ومشرقها وبين الارض والسماء ، ويشرح في تلك السياحة حالا من الوصول (الاتصال بالالوهية) وهو يفعل ذلك بطريقة رمزية واسلوب غامض ، يشير فيه الى عدد من الآيات الكريمة المتعلقة بالانبياء خاصة ، وتتلخص سياحته بأنه لما وصل